

الفروسية العربية

للمعبر كلوب

ترجمة الأستاذ جميل قبعين

— ٢ —

الحرب

لا تتجه نظرة البدوي في الحرب إلى ربح المعركة كما قلت سابقاً، وإنك لا تجد فرقاً بين فرسان القرون الوسطى في أسبانيا أو مناصرات ريكاردوس قلب الأسد في حروبه عندما يصطف الفرسان ويتبارز الفارس والفارس وبين حروب البدو، وقد انقرضت هذه العادة منذ عشرين سنة فقط. إن حب الفاخرة وتطلب الشهرة واحترام تقاليد أساليب الحرب مع عدم وجود الكراهية الشخصية بين الفريقين للتحاربين هي الروح التي تسيطر على المارك. وإن البدوي يجد في الهجوم ليلاً على غنم العدو نذالة بل جبناً؛ وإن معاونة الجرحى وعدم التعرض للنساء في الحرب أمر عادي لديه. ومن تقاليد البدو وعاداتهم إذا ما التقطوا جريحاً أو أخذوا أسيراً أن يعاملوه باحترام ويقدموا إليه طعاماً وشراباً وماوى إلى أن يشفى، ومن ثم يزودونه بالثؤونة ويبيع ليهذهب إلى قبيلته بسلام. إن العقيدة أو الفكرة التي تخرج بها من كل هذه التقاليد والاعتبارات هي أن البدوي يهتم أن يحارب بشرف قبل أن يهتم بربح المعركة.

والمرأة هي التي تثير حماسة الرجال في الحرب، وكما قلت تحكم على بطولتهم، وقد جرت العادة أن تحضر النساء الموقعة راكبة فوق الجمال في كتيبان^(١) مزينة، وكثيراً ما تبرز المرأة من الهودج محلولة الشعر كمشقة الصدر وهي تنفخ بأعمال البطولة راوية أعمال الأبطال السابقين، وكثيراً ما تنادى الفرسان بأسمائهم؛ ولا أرى ضرورة لأن أذكر أن الطرفين كانوا ينفون عن النساء أو لا يقربونهن.

(١) الكتب أو النسيط نوع من المودج، قال امرؤ القيس: تقول وقد مال النسيط بنا معاً عثرت بيدي بالمرأ القيس فازل (المعرب)

ومن جهة أخرى فإن الابل كانت تلعب دوراً هاماً في الحرب. إن الابل من أهم الضروريات للبدوي، ومن المعتاد أن اغتنام قطيع الابل دليل على انتصار الفريق الغانم على الآخر، ولما كانت الابل هي ثمرة الحرب فقد كان شيوخ البدو يحرسون عليها ويتوارثونها جيلاً بعد جيل، وقد جرت العادة أن يسمى الشيخ قطيعه باسم خاص. إن هتاف فرسان البدو في الحرب ينحصر في اسم حبيبة الفارس أو باسم أخته أو باسم قطيع جماله. فهتف مثلاً (أنا أخو جوزا — فيصل) أو (لعيون حميده) أو (خيال العليا — النوري) والعليا قطيع من الابل.

ومن الحكايات التي تروى عن سلطان بن سويط، وقد كان شيخاً لمشيخة الظفير منذ ثلاثة أو أربعة أجيال، أن جماعة نهبت أموال فتاة على حدود الحجاز؛ ولما كان سلطان مشهوراً بشجاعته وفروسيته فقد هتفت الفتاة: (أين أنت يا سلطان لتدافع عن فتاة). وقد تناقل العرب هذه الحكاية حتى وصلت إلى سلطان فأقسم لينتقم لها، وكيف لا وقد استنثت به ولوعاً بمد مئآت الأميال وسأروى لكم حكاية حقيقية وقعت منذ جيلين فقط: — اشتهرت في الجنوب قبيلتا عتيبة وقحطان بمدائهما الشديد وكثرة غارات بعضهما على بعض، وقد كان لابن هادي شيخ قحطان ابنة صارت مضرب المثل عند العرب في الجمال — وقد رفضت كل الذين تقدموا لخطبتها. وكان ابن حميد^(١) اشتهر بشجاعته وفروسيته وكثرة غزواته الموفقة التي شنها على قحطان حتى أقسم شيوخ قحطان يوماً أنهم سينحرون إيلهم في اليوم الذي يأمرهم به ابن حميد. وقد حدث أن تقدم رجل لخطبة ابنة هادي، فلما راجعها والدها بهذا الشأن أجابته قائلة: إنني لن أتزوج إلا أشجع فرسان العرب وأكرمهم وأجملهم. وقد كان رجل صليبي يسترق السمع فسمع ما دار من الحديث بين الوالد وابنته، وعند ما خرج والدها دخل عليها خدرها وقال إن هذه الصفات لم تجتمع يا مولائي إلا لابن حميد. فأجابه: ليتني أراه ولو مرة.

(١) محمد بن هندی بن حميد شيخ فريق برقة من عتيبة وهو شيخ قبيلة عتيبة كلها وتنقسم هذه القبيلة إلى غندين كبيرين برقة والروقة وقد توفي ممرراً. وولده ثابت موجود الآن في العراق إذ قرأ ليها من حبه في الرياض.

صلاح الدين الشهم أرسل إليه فوراً جوادين مع خادم. ليركباها
البطل العربي في المعركة .

ومثل آخر من أمثلة الفروسية ما فعله القائد الفرنسي
الباسل في فونتاتوني إذ دعا الحامية الانكليزية إلى إطلاق
النار أولاً .

إننا في وقتنا الحاضر قد نزدري مثل هذه الأعمال ولكن
يجب علينا ألا ننسى أن عقيدة البدوي في الفروسية هي القيام
بالأعمال التي تنيل المجد والفخر لا كسب المعركة .

الكرم

يحمل الكثيرون من الأوروبيين - كنتيجة لزيارتهم للشرق -
فكرة سيئة عن العرب لكثرة التسولين ، ولكني أصرح بأن
الدين يتسولون هم الطبقة الدنيا من العرب؛ أما الطبقات الأخرى
حتى التي يكثر فيها الفقراء فهم لا يتدانون لثل هذا العمل، وإذا
ما أخذ البدوي دراهم (بخشيشاً) فإنه يأخذها ليكرم بها . لأن -
البدوي كما قلت لا يهتم لمناخ هذا العالم - وهو لا يتردد أبداً في نحر
آخر ما يملكه من الإبل لإطعام ضيف يمر به ولو كان هذا
الضيف غريباً .

توجد قبيلة من البدو قاطنة في شمال الحجاز فقيرة معوزة
حتى أن أفرادها لا يملكون خيلاً يأوون إليها وهم يفتنون
الكهوف ، ولكنهم إذا ما رأوا ماراً بالطريق ركضوا نحوه
وأحضروه ونحروا له ما يملكون من المواشي

جميل قبيص

« يتبع »

لحن الخلود

هو قطع حبة من أدب القوة والجمال . هو خلاصة
السحر الحلال والمثل الأعلى لشعر الشباب
للشاعر مصطفى علي عبد الرحمن

واحدة . فنقل الصليبي هذا الحديث لابن حميد . وقد كانت شهرة
بنت هادي وصيت جمالها قد سبقوا وصول خبرها إلى ابن حميد فكتم
هذا الحديث في نفسه حتى إذا جن الليل غادر منازل عشيرته ذاهباً
إلى منازل قحطانات وتسلل بين البيوت حتى دخل خيمة
الفتاة وأيقظها بلطف وعرفها بنفسه ففرحت به ، ولكن لم تكند
تهداً أعصابها بمد فرحها بلقائه حتى جرعت عليه لهذه الناصرة
فطمأنها . وظلّا يتسامران حتى طلع الفجر . وكانت العادة أن يجتمع
البدو عند شيخ القبيلة صباحاً لشرب القهوة وللتداول في شئون
المشيرة . فلما اجتمع الشيوخ خرجت الفتاة إلى والدها
قائلة : يا أبت أطلب إليك أمنية فهل تعدني بإجابتي إليها ؟
فأجابها : إن أمنيتك مستجابة قبل أن تطلبها . عندئذ قالت
اشهدوا يا شيوخ قحطانات على قول والدي . فأجابوها : نحن
شهود على قوله . فقالت : حينئذ أريد أن تُبقي علي بن حميد .
فأجابها والدها لا تكوني سخيفة ! هذا عدو قبيلتنا ؛ وعلى كل
حال بيننا وبينه مائتتا ميل على الأقل . فأجابته : كلا إنه في هذه الخيمة .
فقام والدها يريد الرجل لينتقم منه فاستوقفته منادية شيوخ قحطانات
الدين تدخلوا في الأمر وذكروه بوعده ، فخضع للأمر الواقع ، وهنا
خرج ابن حميد ليتزوج حبيبته بينما نحر شيوخ قحطانات إبلهم
لا لأسر ابن حميد بل احتفاءً بزواجه من فتاتهم .

هذه الحكاية ترينا بجلاء أن غاية البدوي الفخر والمجد لا
النصر ، والحرب وسيلة المجد وليست وسيلة الكسب . وأمثال هذه
الحكاية كثيرة لا تحصى .

لا يكون حديثنا عن الفروسية تاماً دون التحدث عن
صلاح الدين . في الحقيقة أن صلاح الدين كردي ، وقد قاتل لأجل
الدين لا لأجل المجد والشرف ، ولكن روح الفروسية ظهرت
بجلاء في كثير من أعماله . حينما حاصر صلاح الدين قلعة الكرك
لأول مرة كان أميرها همفري أوف تودن يعتقد قرانه على الزنا
أخت ملك القدس . ولما علم صلاح الدين بالأمر منع جنوده عن رمي
السهم على القلعة ، كما أن صاحبها أرسل إلى القائد المسلم الخبز والتمر
واللحم من ولية المرس . ولما خرج ريكاردوس قلب الأسد للدفاع
عن ياقا بالبركان راكباً دابة استمارها من أحد السكان ، ولكن